جامعة البصرة

كلية الفنون الجميلة
قسم التشكيلي

المادة : تاريخ الفن الحديث

الموضوع : المؤسسات الفكرية للحداثة

المرحلة : الرابعة – تشكيلي

أ.المادة . م. د أسماء سمير حليم

المؤسسات الفكرية للحداثة

تندرج الحداثة بمفهومها العام تحت معنى التجديد وذلك المعنى ينفتح على مبدأ المغايرة فلكي تُنعت ظاهرة ما بالحداثة لا بد ان تتضمن خلخلة وهدم لمفاهيم سابقة ثم بناءً لنسق جديد على ذلك اختلف المفكرين والنقاد في تحديد بداية الحداثة فعلى الرغم من ان الحداثة مفهوم شاع تداوله في القرن العشرين الا ان البعض يرده الى القرن الرابع عشر وما بعده مع التغييرات السياسية والاكتشافات العلمية والطروحات الفلسفية فعلى المستوى السياسي شهد العالم الغربي احداثاً مفصلية كسقوط الامبراطورية البيزنطية [*](١٤٥٣)

---

*) الامبراطورية البيزنطية أو بيزنطة (Byzantium) مدينة يونانية قديمة تقع على مضيق البوسفور بتركيا تأسست بيزنطة عام ٦٥٧ق . م على يد مجموعة من الملاحين وقد اتخذت تسميتها من بيزاس ابن الملك نيسوس ملك ميغارا (ميغارا مدينة يونانية) عرف بيزاس كمؤسس لمدينة بيزنطة عام ٦٦٧م على ان نقطة انطلاق التاريخ البيزنطي يعود الى عام ٣٣٠ م وفي عام ٣٣٥م جعلها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) لتعرف بالقسطنطينية نسبة للإمبراطور قسطنطين مؤسس الإمبراطورية كما عرفت روما الجديدة ويعد تأسيس القسطنطينية نوع من الاصلاحات والتغيرات التي بدأت بالتحول التدريجي بأمبراطورية روما الوثنية الى الامبراطورية البيزنطية فقد فرض قسطنطين الديانة المسيحية ديناً رسمياً لروما والإمبراطورية كلها. لذلك فقد عُرِفَ مواطنو القسطنطينية وبقية الإمبراطورية الرومانية الشرقية باسم الرومان والمسيحيين في الوقت نفسه.
تعود اصول البيزنطينين الى الامبراطورية الرومانية القديمة على أن انقسام الاخيرة الى قسم شرقي وقسم غربي وضع البرنطينيين ، ضمن القسم الشرقي من الإمبراطورية ، تدريجياً انفصل البزنطيون رسمياً عن الإمبراطورية الرومانية ليأسسوا إمبراطورية مستقلة سياسيًا وعسكريًا، عرفت بقوتها ونفوذها حتى جاء توصيفها بواحدة من اكبر الامبراطوريات في التاريخ ، أستمرت الامبراطورية البيزنطية ما يزيد على احد عشر قرناً ونصف كانت في المرحلة المبكرة وريثة الامبراطورية الرومانية المقدسة ونظراً لموقع بيزنطة الذي يربط بين الشرق والغرب باتت محط اطماع من الجهتين فمن ناحية اقتطع الشرق جزء من اراضيها ومن ناحية اخرى اقتطع الغرب الجزء الاخر حتى تقلصت اراضيها وقلت مواردها فعجزت عن صد الاخطار لتسقط في النهاية على يد الاتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م .... عرفت المرحلة التاريخية للامبراطورية البيزنطية بالعصور الوسطى وهذه المرحلة اتسمت بنظام سلطوي مركزي فئمة نزعة من الاوتوقراطية- Autocracy (السلطة السياسية بيد شخص واحد بالتعيين لا بالانتخاب) والبيروقراطية - bureaucrat (الحكم وتطبيق القوانين بالقوة) وهذه الاجراءات تمنح الامبراطور مكانة مقدسة تلزم اتباعه بالطاعة والولاء . ويرد ضعف بيزنطة سياسياً واقتصادياً ثم سقوطها الى الحروب الصليبية التي كانت تمر عبر مدينة القسطنطينية وهي سلسلة من الحملات والحروب شنها أوروبيون من أواخر القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر تحت غطاء ديني قالداعي الاول لهذه الحروب اكبر شخصية دينية في الغرب الاوربي الكاثوليكي وهو البابا اوروبان الثاني تحت مبرر تخليص قبر المسيح ومقدساته في فلسطين من سيطرة المسلمين والزعم بحماية مسيحي الشرق وحجاج الغرب الكاثوليك من اضطهاد المسلمين وحماية اكبر امبراطورية مسيحية شرقية وهي الامبراطورية البيزنطية من خطر وتهديد القوة الاسلامية والاتراك على ذلك عرفت بالحرب المقدسة وكان شعارها الصليب وجنودها هم جنود الرب ، على انها في الحقيقة حرب سياسية استهدفت المسلمين من جانب ومسيح الشرق من جانب اخر فرغم ان الغرب الاوربي الكاثوليكي ادعى حرصه على حماية الامبارطورية المسيحية الشرقية الا ان ثمة رغبةً في السيطرة على الاراضي البيزنطية واضعاف الكنيسة الارثذوكسية وضمها الى الكنيسة الكاثوليكية ذلك ان الخلاف بين الطرفين هو ان التعاليم الكاثوليكية تلتزم الجانب الروحاني في حين تتجه التعاليم الارثذوكسية نحو تقديس وعبادة الايقونات الدينية .
ينظر : - ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، تر. عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٢ ، ص٣- ٢٥
- بيزنطة – ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org › wiki
- محمود سعيد رمضان : الامبراطورية البيزنطية وحضارتها ، دار النهضة العربية بيروت – لبنان ، ط١، ٢٠٠٢ ص مقدمة المترجم
- عبدالعزيز الرمضان : بيزنطة والحروب الصليبية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص ١-٤

كذلك ثورات تطالب بالتحرر كالثورة اللوثرية [*] (١٥٢٠) – الثورة الفرنسية (١٧٨٩) [**] – الثورة الامريكية (١٧٧٦)[***] ، اما على المستوى العلمي والمعرفي أكتشاف العالم الجديد (١٤٩٢) [****]– اختراع غونتبرغ للطابعة [*****] – اكتشاف الدورة الدموية – النهضة الفنية في ايطاليا [******] ثم ما قدمه ديكارت في طروحاته الفلسفية (١٦٣٧)

---

*) الثورة اللوثرية : ثورة اصلاحية نشطت في القرن الخامس عشر مع كتابات القديس مارتن لوثر Martin Luther عام ١٩١٧ التي قدم فيها تشكيكاً ونقداً وتمرداً على التعاليم الكنسية وعلى رأسها السلطة المطلقة للبابا داعياً الى حرية مسيحية بل وحرية دينية مما استدعى السلطات الدينية المستفيدة من صكوك الغفران الى عزله من الكنيسة لما يشكله من خطر على مصالحها ثم اعلانه ومؤيديه بخارجاً عن القانون ، وقد عرفت اللوثرية كمذهباً للبروتستانيتية التي ناهضت الكنيسة الكاثوليكية لتؤسس كنائس مستقلة ذات تنظيم وإدارة جديدة عرفت بالكنائس الإنجيلية أو البروتستانتية . ينظر : سكوت اتش هندريكس : مارتن لوثر - مقدمة قصيرة جداً ، تر. كوثر محمود محمد ، م . هبة عبد العزيز غانم ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، ط١ ، ٢٠١٤ ، ص ١٥-١٦

* *) الثورة الفرنسية ١٧٨٩: الثورة بمفهومها العام انقلاب في النظم والمعتقدات القائمة واستبدالها بنظم جديدة ، كذلك هي الثورة الفرنسية هي ثورة وانقلاب على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في فرنسا فسياسياً انتهت بأستبدال الحكم الملكي بحكم جمهوري اما اجتماعياً فتمثلت بأنعاء التمايز الطبقي وتحول الشعب الفرنسي الى طبقة واحدة في حين تمثلت اقتصادياً بألغاء الضرائب واحتكار الصناعة وحولت أملاك الكنيسة الى ملكية للشعب ... تعود ألاسباب العامة للثورة الى حالة الفقر والديون المتراكمة على فرنسا في عهد الملك لويس السادس عشر كذلك النظام السياسي الاستبدادي لحكومة فرنسا فسلطة الملك سلطة مطلقة مستمدة من فكرة الحق الإلهي او نظرية الحق والسيادة التي تمنح الراعي حق التصرف بأمور رعيته
أن اسباب الثورة بصورة اكثر تفصيلاً تعود الى التمايز الطبقي فالشعب الفرنسي ينقسم الى ثلاث طبقات الأولى طبقة الاشراف والثانية طبقة رجال الدين والثالثة طبقة العامة الأولى تتمتع بالامتيازات التي ورثتها عن الاقطاع (جباية الضرائب – حق الصيد – امتلاك المناصب) ، وتأتي طبقة رجال الدين بامتيازاتها بعد طبقة الاشراف اذ تتمتع بامتيازات الاعفاء من الضرائب أيضاً وتملك حق فرض ضرائب الكنيسة التي تجبيها من الشعب مباشرة ، اما الطبقة الثالثة طبقة العامة (العمال والفلاحين) لا تتمتع بأي امتيازات مما افضى عن معادلة قامت على بذخ الاشراف ورجال الدين وتعاسة لطبقة العمال والفلاحين وهذه انتجت مطالبات شعبية تدعوا الى المساواة وتحقيق العدالة تصاعدت وتيرتها مع الثورة التي انتقلت بفرنسا من حكم استبدادي الى حكم ليبرالي
ينظر : حسن جلال : الثورة الفرنسية ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ص ١- ٤٠

***) الثورة الامريكية ١٧٦٥ -١٧٨٣. ثورة قادها الوطنيون الأمريكيون بمساعدة فرنسا للتحرر والاستقلال من بريطانيا وتتحدد اسباب الحرب بعوامل سياسية واقتصادية ونفسية فعلى الجانب السياسي حدد البرلمان الانكليزي صلاحيات الحكومة المحلية للمستعمرات بما يجعلها تابعة ومفيدة في ممارسة الحقوق السياسية اما على المستوى الاقتصادي ثمة تقييد للنشاط التجاري والذي اقتصر فقط على انكلترا في حين يتحدد العامل النفسي بقضية الذات والهوية ... ينظر : عادل محمد حسين العليان : الثورة الامريكية وحرب الاستقلال ، مجلة سر من رأى ، مجلد ٨ ، العدد ٢٨ ، ٢٠١٢ ، ص ١٥١-١٥٤ .
****) اكتشاف العالم الجديد : الاكتشاف الجغرافي للارض الامريكية بجهود كل من البرتغال واسبانيا وانكلترا وفرنسا وهولندا ألا ان الاكتشاف تم على يد الملاح الايطالي كريستوفر كولمبس خلال اربع رحلات تمت بين ١٤٩٢- ١٥٠٤ ... ينظر : عادل محمد حسين العليان : الثورة الامريكية وحرب الاستقلال ، ص ١٤٦ .

*****) وهان غنزفلايش تسر لادن تسوم غوتنبرغ (١٣٩٨ - ١٤٦٨ م) مخترع ألماني قام بتطوير قوالب الحروف بوضعها جنباً الى جنب ثم يوضع فوقها الورق و يضغط عليه فتكون المطبوعة. ويعتبر مخترع الطباعة الحديثةhttps://ar.wikipedia.org › wiki › يوهان_غوتنبرغ

******) عصر النهضة الإيطاليّة (١٤٠٠-١٦٠٠) : وهي مرحلة عرفت بمناخ ثقافي مغاير في اوربا فثمة انتقالة من مرحلة القرون الوسطى التي عرفت كمرحلة تشدد ديني وتراجع عن الثقافة والارث اليوناني القديم بوصفها ثقافة وثنية ، الى مرحلة جديدة عرفت بالنهضة Renaissance وتعني اعادة احياء اذ ارتكزت طروحات النهضة على بعث الثقافة اليونانية القديمة واعادة احياؤها لما تتضمنه من جمالية ودقة متناهية فأذا كانت العصور الوسطى قد الزمت الفن بأبعاد رمزية دينية وسمت الاشكال بالتسطيح والجمود حفاظاً على قدسية الايقونات الدينية فأن فن عصر النهضة اتجه نحو الاهتمام بمنح الاشكال حيوية انسانية من خلال العودة الى ضبط النسب وقوانين التشريح حتى اصبحت الاشكال الانسانية اقرب طبيعتها الواقعية على ذلك جاء توصيف تلك المرحلة عند بعض المؤرخين ببداية الحداثة كونها مرحلة انتقالية من العصور المظلمة الى مرحلة جديدة عرفت بحراكها المعرفي والثقافي والفني .

(*******) التي مهدت الطريق لدخول الغرب عصر التنوير المعروف بسيادة العقل كسلطة للمعرفة خلال القرن الثامن عشر .

مما تقدم يبدو ان للحداثة بنسختها المعاصرة تغذت من مرجعيات ومراحل تاريخية اسهمت في صياغتها كمشروع ثقافي خلال القرن العشرين على ذلك يقسم بيرمان الحداثة الى ثلاث حقب الاولى تبدأ من القرن السادس عشر الى نهاية القرن الثامن عشر في حين تبدأ الثانية مع الحراك الثوري في تسعينيات القرن الثامن عشر مع الثورة الفرنسية وتتمثل المرحلة الثالثة في القرن العشرين حيث تتسع الحداثة لتشمل العالم كله . وتتسم الحداثة بحقبتها الاخيرة بكونها تغيير وتحول في بنية مجتمع (اقتصادية ، سياسية ، اجتماعية ، دينية ، معرفية ، فلسفية) يمكن تلخيصها كالآتي :

١- اقتصادياً : هيمنت النظام الرأسمالي وذلك اوجد أ- ثورة صناعية وتحولاً نحو عصر الآلة والتصنيع ب- نمواً لثقافة السوق وروح المنافسة وزيادة الانتاج وهنا شهد العالم الغربي نمواً اقتصادياً وتحسن في مستوى المعيشة الا أن الرأسمالية من جانب آخر حولت الانسان الى آلة شرهة لتنتفي العلاقات الاجتماعية بنسختها الرمزية والروحية لتحل النسخة المادية

٢-سياسياً : نشوء نظام سياسي ليبرالي يؤمن بمبدأ الحرية والعدل والمساواة وذلك يعني افول مرحلة تمركز السلطة وانحسارها بفرد او دين او دولة على ذلك تؤسس الليبرالية مقولاتها على مبدأ الحرية (حرية الفكر – الاعلام – الدين – السوق) .

٣- معرفياً : دخول العالم الغربي ثورة تكنلوجية كشفت عن هيمنة للعقل والمعرفة العلمية ، وتمثلت فلسفياً بظهور نسق فلسفي يعنى بالذات الانسانية وفكرة التحرر صاغها فرويد ضمن تخصصه النفسي و سارتر ضمن تخصصه الادبي ومذهبه الوجودي .

(*******) تقوم طروحات ديكارت على مبدأ العقل كأساس لتحصيل المعرفة ذلك أن الميتافيزيقيا لا تصلح لتفسير الظواهر فالعقل وحده مصدر المعرفة على ذلك اطلق ديكارت مقولات الذات المفكرة التي لخصها بمبدأ الكوجيتو (انا افكر اذن انا موجود) التي اطلقها في الحديث الفلسفي الذي افتتحه في القرن القرن السابع عشر ووفق هذه المقولة يقوم المنهج الديكارتي على مبدأين : ١- البداهة التي هي التصورات الاولية التي تتشكل في الذات ٢- الاستنباط وهو عملية عقلية تنقلنا من الفكرة البديهية إلى نتيجة جديدة

اذن شكلت الحداثة مرحلة تاريخية من مراحل تطور الفكر الغربي امتازت بالاختلاف والتعقيد والتجديد حملت معها روح التمرد والتجاوز للاطر السابقة وهو ما ينضوي عليه المعنى الاشتقاقي لمصطلح الحداثة فالحديث (modern) يعني نقيض القديم يرادفه الجديد [١]

على ذلك جاء توصيف الحداثة عند بعض المفكرين كحركة تقدمية و مرحلة قطع مع التراث والماضي او مرحلة هدم في داخلها نوع من انواع البناء فالحداثة هي حركة الحدوث والعصرنة وحركة المسار الاجتماعي ، حراك تباين وتعقلن وتعلمن وبحسب بودريارد الحداثة موضوع يشير الى تطور تاريخي وتبدل فالحداثة صيغة مميزة للحضارة : تعارض صيغة التقليد وهي من اكبر الهزات التي حدثت في تاريخ اوربا حيث شملت هذه الهزة الامور السياسية والدينية والقيم الاجتماعية وكذلك االادب والفن [٢] .

ولما كانت الحداثة حركة هدم وتمرد فهي تقييم مؤسساتها على ثلاث مرتكزات :

١- العقلانية الصارمة فرغم ان العقلانية مذهب نشط مع ديكارت (القرن السابع عشر) الا ان الحداثة بالغت في تصعيد سلطة العقل والعلم الذي اصبح نموذجاً للمعرفة على ذلك وصفت الحداثة كمشروع لتخليص الانسان من الأوهام والخرافات وتفسير الوجود عقلانياً .

٢- الذاتية : أعلنت الحداثة الذات كمصدراً للمعرفة وتفسير الكون فالحداثة هي اولوية الذات ، انتصار الذات ، او رؤية ذاتية للعالم [٣]

---

[١]) جميل صليبا : المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيروت – لبنان ،١٩٨٢ ، ص٤٥٤

[٢]) ينظر :

- خليل احمد خليل : معجم المصطلحات الفلسفية ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، ط ١ ،١٩٩٥، ص٦٣

- لؤي علي صالح الجبوري : الحداثة واشكالية الانقطاع ، جامعة بغداد /كلية الهندسة ، اطروحة دكتوراه - هندسة معمارية / غير منشورة ، ٢٠٠٤، ص٥

[٣]) حوارات منقاة من الفكر الالماني : مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة ، تعريب .محمد الشيخ وياسر الطائي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩٦، ص١٢

٣- العدمية : العدم كمصطلح يتعلق بفكرة اللاشيء أوالانهاء التدمير ومن ذلك تتخذ العدمية معناها فالعدمية تعني الغاء كل الثوابت والقيم الراسخة فلا قيمة للقيم ولا وجود للحقيقة فالموقف العدمي يتخذ من الشك اساساً للوجود وأذا كانت الفلسفة الكلاسيكية اتخذت من الاخلاق احد المحاور الفلسفية التي تبحث في تنظيم الوجود فأن العدمية كفلسفة معاصرة تتبنى فكرة العبثية تحت شعار لا قيمة للقيم ثم استبدال سؤال الحياة والوجود بفكرة الموت والعدم .

وهكذا نجد ان الحداثة تطلق الحرية للعقل والذات في تنظيم وتمثيل العالم لينتقل العالم من دراسة الوجود الى دراسة الموجود أي الانسان على ان ذلك الاجراء وسم الحداثة بالتناقض واللاثبات فمن جانب تنادي بالعقلانية وأولوية العلم ومن جانب أخر تنادي بالذاتية والعدمية وهذه تقدم الحرية والخيال كأداة لفهم العالم .

أن الحداثة بوصفها ثورة انقلابية على كل المستويات نجد ان الفنون احد الحقول التي مارست الهدم والتجاوز لكل ما هو مألوف مستعينة بما طرحه خطاب الحداثة من مقولات – العقلانية ، الذاتية ، العدمية – التي انتجت سلسلة سريعة ومتلاحقة من الحركات الفنية بعضها اتجه لتطبيق العلم ونظرياته كالانطباعية والتكعيبية والمستقبلية والبعض الآخر انفتح على تفعيل الذات والانفعالات الداخلية كالتعبيرية والوحشية والسريالية والتجريدية في حين اتجهت الدادائية نحو تطبيق مقولات العدمية كالعبثية والسخرية من القيم الجمالية وهكذا انضوى الفن الحديث على اختلافات بحيث كل حركة تعلن عن نفسها كرؤية تجديدية وتمرداً على ما سبق

ولما كانت الحداثة حركة قائمة التجديد وخرق المألوف والتقليدي في الفن فقد تركزت جهود الفنانين على تحطيم الاطر الكلاسيكية والقواعد الاكاديمية في الفن حتى وصلت الى تحطيم الشكل الواقعي واحياناً تشويهه كنوع من تجديد الرؤية الفنية والانتصار لفكرة الذات والتحرر وهذه الافكار رغم جدتها الا ان الرومانسية كحركة في الادب

والفن كانت قد بدأت الحديث عن الذاتية وفاعلية الخيال منذ نهاية القرن الثامن عشر لتضيف نوع من التجديد الجمالي والاسلوبي لذا تعد الرومانسية عتبة الدخول الى مرحلة الحداثة .